

في رحاب الحرم الشريف: إبراهيم دقّاق يتذكر*

تجاوز لورا فراجيا كومو** [في هذا العدد من JQF] إبراهيم دقّاق، وهو مقدسي معروف جيداً، وعضو المجلس الاستشاري للمجلة، وعمل معمارياً ومهندساً وناشطاً سياسياً. ويبوح دقّاق، في هذه المقابلة، بذكريات طفولته عن القدس ويتحدث عن واجباته كحامٍ لتراث البلدة القديمة.

”لم يتغير الحرم الشريف بالنسبة إليّ“، يقول إبراهيم دقّاق، وهو كمسلم علماني مقدسي، لا يرجع تعلقه بالحرم الشريف والمناطق المحيطة به إلى طبيعة دينية، وإنما يربطه بالمدينة كموطن للعيش. يتذكر دقّاق القدس كما كانت قبل سنة 1948 – قبل أن ”تُهود“ القدس الغربية بالكامل وتُحمى سمتها العربية إلى حد كبير. ويلحظ أن البلدة القديمة تتغير من عدة نواح: كانت الأسواق من قبل تقدّم خدماتها إلى المقيمين المحليين، أمّا اليوم فهي تخدم السياح وغير المقيمين على الأغلب. في طفولة إبراهيم دقّاق كان الحرم الشريف، بموقعه في قلب البلدة القديمة، المركز الذي تدور حوله حياته إلى حد بعيد، وبقي المكان الذي لم يتغير قط، على الرغم من التقلّب المتواصل الذي يحدث حوله.

أدى الحرم الشريف دوراً محورياً في طفولته، وقد أمضى معظم وقت فراغه وساعات الفراغ في المدرسة في اللعب مع أقرانه في رحاب الحرم الهادئة. كانت المدارس التي تعلم فيها تقع قرب الحرم، وفي أثناء فرصة الغداء كان يأكل ”سندويشاته“ في باحته. ويوم الجمعة، كان إبراهيم دقّاق يصلي مع والده في الحرم الذي كان يتحول عندئذ، ولا سيما خلال الصيف، من مكان مقدس للصلاة إلى مكان يتجمع فيه الأصدقاء والمعارف: ”كنا نمكث ساعات بعد إتمام الصلاة للقاء الأصدقاء والجيران ومعرفة آخر الأخبار.“

أمضى إبراهيم دقّاق أعوام المدرسة الابتدائية في المدرسة الإسلامية في البداية، وهي اليوم مدرسة للأطفال المعوقين. بعد ذلك أمضى أربعة أعوام في المدرسة العمرية قرب محطة الصليب الأولى: ”كانت تسمى في ذلك الوقت روضة المعارف

* Jerusalem Quarterly File, no. 13, Summer 2001, pp. 27-31.

** مديرة تحرير مجلة Jerusalem Quarterly File.

الوطنية." وربما كانت مدرسته في ذلك الحين واحدة من أهم المدارس من نوعها، إذ كانت مكاناً يتعلم فيه المسلمون، وبعض المسيحيين أيضاً، التربية المدنية مع خلفية متينة في التاريخ والأدب العربيين.

"كنا نظن أننا سنكون زعماء فلسطين في المستقبل. كانت مدرستنا فريدة في نوعها، يديرها العرب، ويُنظر إليها كمنافسة للمدارس الأخرى التي تديرها الإرساليات الأجنبية، مثل مدرستي الأرض المقدسة والمطران غوبات."

ومن ذكريات الطفولة الأحب إلى نفسه مواسم النبي موسى. فقد كان المسلمون يتجمعون من أقصى أنحاء فلسطين في المسجد لبدء الاحتفالات وبعد أداء الصلوات تسير الجموع في حج إلى المزار الذي يقال إن موسى دُفن فيه قرب أريحا.

كان للمسيرة إلى قبر موسى، بالنسبة إلى إبراهيم دقاق وكثير من الفلسطينيين، تداعيات دينية وسياسية وشخصية. وكانت زيارة النبي موسى السنوية تقع دائماً في الأسبوع الذي يسبق عيد الفصح، حيث كان آلاف المسلمين من كل أنحاء فلسطين يأتون إلى القدس يوم الجمعة العظيمة، التي تتزامن أيضاً مع عطلة الفصح عند اليهود. وكانت هذه العطلة الإسلامية الاحتفالية الوحيدة التي تتبع التقويم

الغربي (الغريغوري). وكانت جزءاً من الطقوس الدينية التي ينتظر أن يؤديها كل مسلم. يرجع تاريخ هذا الموسم إلى زمن تحرير القدس على يد صلاح الدين، الذي سمح للصليبيين والحجاج الغربيين الآخرين بزيارة الأماكن المسيحية المقدسة في زمن الفصح، في عرض لقوة المسلمين وحسن نياتهم، وأحيطه في القرن التاسع عشر السلطات العثمانية التي أرادت أن تشجع على تزامن حج إسلامي كبير مع قدوم الحجاج الأوروبيين، وأغلبيتهم من الروس الأورثوذكس الذين بدأوا يتدفقون إلى القدس في عيد الفصح.

لقد كان ذلك فعلاً سياسياً اتخذ شكل طقس ديني: "كانت تلك فرصة لنا للتعبير عن أفكارنا، وشعرنا بأن ما من أحد يمكن أن يوقفنا، لا البريطانيون ولا الأردنيون." كانت حشود المواطنين تتجمع، وتسير معاً، وتهتف معاً. وكان أي نظام حكم قائم في البلد يشعر بالتهديد الكامن فيها. ولا تزال احتفالات النبي موسى إلى اليوم جزءاً من الذاكرة الاجتماعية للمقدسيين، وخصوصاً كبار السن، لأن الصغار لا يذكرون حقاً كيف كانت.

يتذكر إبراهيم دقاق الجو البهيج: الناس يغنون ويتميلون في حلقات الذكر، وسباق الخيول، والمباريات التي تتواصل أياماً حول المزار. ذكرياته عن الاحتفالات

قرب مزار النبي موسى تنبض بالحياة. وكان أخواله – الحسينيون – من إحدى عائلتين تملكان مباني عند المزار، وكان دقاق وأبناء أخواله يحظون بميزة الإقامة معهم.

”أذكر المطبخ الكبير، حيث كنا نحن الأولاد نركض للحصول على شيء من الطعام الذي كان الطباخون يوزعونه مجاناً على المحتفلين، [...]“.

بعد انتهاء الاحتفالات، كان المشاركون، وضمنهم معظم سكان البلدة القديمة، يعودون إلى ديارهم.

كان الحرم الشريف يؤدي دوراً مركزياً في حياة سكان البلدة القديمة والمقدسيين الآخرين. لكن المسجد الأقصى كان يجتذب أيضاً زواراً مسلمين من العالمين العربي والإسلامي، باعتباره ثالث أقدس الأماكن الإسلامية بعد مكة والمدينة. وكان مجمع الحرم، مع المسجد الأقصى، نقطة مركزية يؤمها المسلمون جميعهم، حيث كان الحجاج يعرجون على القدس كجزء من أعمال الحج.

”أذكر أنني كنت أشاهد حجاجاً من دمشق والمغرب، وحجاجاً أفارقة أيضاً. وكان كثيرون منهم يستقرون في نهاية المطاف بحارة المغاربة. وما زال لدينا حتى اليوم عائلات مسمّاة نسبة إلى موطنهم – الشامي والمغربي.“

وكان غيرهم يمضي يوماً واحداً فقط: قبل سنة 1967، كان البيروتيون يطيرون إلى القدس للصلاة، ثم يعودون إلى لبنان في الليلة نفسها.

كان إبراهيم دقاق ناشطاً فلسطينياً طوال حياته، يحفزه دائماً الوضع السياسي المتقلب على المشاركة في دعم شعبه في محنته. وقد نشط منذ الستينات في الكثير من المنظمات المهنية والوطنية، بما في ذلك ”منتدى الفكر العربي“.

في سنة 1969، أصبح ارتباطه بالحرم الشريف ارتباطاً مهنيّاً، بعد أن طُلب منه ترؤس لجنة ترميم المسجد الأقصى التي أُلّفت حديثاً، في إثر الدمار الشديد الذي لحق به نتيجة إحراقه على يد صهيوني مسيحي من أستراليا. يقول إبراهيم دقاق متذكراً: ”كنت أنظر إلى الحرم حتى ذلك الوقت باعتباره جزءاً من حياتي الاجتماعية، لكن بعد الحريق المتعمد الذي أتى على محرابه الفريد، تحولت علاقتي بالمجمع إلى واجب ملقى على عاتقي.“

منذ أن ضمت إسرائيل البلدة القديمة سنة 1967، شعر الفلسطينيون والمسلمون في كل مكان بخطر إسرائيلي ملموس على الحرم. ”إننا خائفون جميعاً.“

والحريق المتعمد أكد هذا الخوف. عندما توليت العمل كمدير سنة 1969، شعرت بامتزاج طموحي المهني برغبتني في تحدي الإسرائيليين.
 كان الفلسطينيون والمسلمون يعرفون أن الإسرائيليين يريدون [الاستيلاء على] الحرم، لكن ذلك لم يكن مشكلة إبراهيم دقاق، بصرف النظر عما يقولونه بشأن إعادة بناء الهيكل. "كانت مشكلتي كيف أبعاد الإسرائيليين عن المدخل وأمضي قدماً في أعمال التجديد والحفريات لتقوية أساسات المسجد." كان هناك مسائل كثيرة للمناقشة، بما في ذلك الرأي العام المحلي والدولي: "لا يسع المرء أن يتجاهل أن للجميع حصة في هذا المكان."

يذكر إبراهيم دقاق كيف وصل حاخام إلى الحرم مع مجموعة من اليهود وأخذوا يصلون من أجل إعادة بناء الهيكل. ويذكر أيضاً زيارة لموشيه دايان، وزير الدفاع آنذاك: "جاء عدة مرات لمراقبة الحفريات التي نجريها. فقد كان عالم آثار هاوياً." وذات يوم، أتى البروفسور ب. مازار، وهو عالم آثار إسرائيلي مشهور، مع دايان:

"كان مازار ضعيف البصر ويضطر إلى الاقتراب من أي شيء يريد تفحصه بدقة. وفي مرحلة ما كان الاثنان يقفان قرب موقع حفريات ضرب نطاق حوله. نظر البروفسور مازار إلى أسفل، فرأى جداراً صغيراً كشفنا عنه. فصاح عن بعد ثمانية أمتار: 'أنظر هنا، هذه بقايا الهيكل الثاني!' ومن حسن الحظ أن مساعده الذي كان بجانبه (واتفق أن بصره كان ممتازاً) أجابه: 'سيدي، هذا جدار أموي، وليس جداراً من عهد الهيكل الثاني.'"

ويذكر إبراهيم دقاق أن تيدي كولي، رئيس بلدية القدس السابق، ومن الزوار الذين كانوا يترددون على الحرم، سئل ذات مرة إن كان الهيكل الثاني سيبنى: "كان جوابه شديد الدبلوماسية هو أنه سيبنى حتماً، لكن عند مجيء المسيح! مضيفاً أن المسيح لم يأت حتى الآن، وما زلنا ننتظر!"

في الأشهر الأخيرة، تقدمت المجموعات الإسرائيلية اليمينية بالتماس إلى المحكمة الإسرائيلية العليا لوقف أي تجديد أو حفريات يجريها الفلسطينيون في الحرم الشريف على الفور، زاعمين أن هذه الأعمال تدمر أشغالاً يدوية من عهد الهيكل. ويعتقد إبراهيم دقاق أن هذه خدعة سياسية، لأن من الحقائق المعروفة جيداً أن إسرائيل هي التي دمرت أشغالاً أثرية أخرى، بل حتى منشآت معاصرة، بما في ذلك بيوت

الفلسطينيين وأحياء بأكملها.¹ "لذا لا يمكن للمرء القول إن الإسرائيليين يدفعهم حرصهم على المشغولات اليدوية"، كما يرى دقّاق، "إننا نعرف جيداً ماذا فعلوا في حارات وأمكنة أخرى، سواء في القدس أو في مناطق أخرى من فلسطين". وفي ملاحظة سياسية، يشعر دقّاق بأن زيارة أريئيل شارون، وهو يهودي علماني، للحرم الشريف كانت محاولة واضحة لكسب تأييد المستوطنين والإسرائيليين المتدينين. ويتابع إبراهيم دقّاق تفسير ذلك بقوله إن هناك شرخاً بين المجموعات الإسرائيلية بشأن دور "جبل الهيكل" (التسمية اليهودية للحرم الشريف). فكثيرون من اليهود الأورثوذكس يعارضون بشدة "استصلاح جبل الهيكل"، لأنهم يؤمنون بأن إعادة بنائه لن تتم إلاّ عند مجيء المسيح. غير أن مجموعات أخرى تبتعد عن هذا التفسير التوراتي من أجل تحقيق أهداف سياسية، مثل السيادة الإسرائيلية على أكبر قدر ممكن من الأماكن.

ماذا يجب أن يكون رد الفلسطينيين؟ يؤكد إبراهيم دقّاق أن من الأشياء التي يستطيعون عملها متابعة صيانة وترميم الحرم الشريف بعناد. "الآن وقت القيام بذلك، بينما علينا في الوقت نفسه أن نجعل العالم يدرك الخطر الحقيقي الداهم، الذي لا يتهدد موقعاً مقدساً لدى المسلمين فحسب، بل يتهدد أيضاً درّة في تراثنا الإنساني".

¹ Tom Aboud, "The Morrocan Quarter. A History of the Present," *Jerusalem Quarterly File*, no. 7, Winter 2000, pp. 6-14.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>